المجلة العلمية لكلية الآداب مج 11، ع 1 (2022)، 107 - 127
المجلة العلمية لكلية الآداب
https://artdau.journals.ekb.eg/

حرية النقد والتعبير في العصر الأيوبي (567-648هـ/1171-1250م)

محمد فرج حافظ خفاجي
طالب دكتوراه – قسم التاريخ – كلية الآداب – جامعة دمياط.

المستخلص

تهدف الدراسة إلى القاء الضوء على حق النقد والتعبير كأحد الحقوق المشروعة التي حث عليها الشرع الحنيف، وهل التزمت الدولة الأيوبية بمنح هذا الحق للرعية أم لا؟. وبينت الدراسة في نقاط عديدة منح السلطات الأيوبية للرعية حق النصح والتعبير عن الرأي وأحيانا النقد اللاذع للسلاطين والأمراء دون تخويف أو إكراه، والأثر الإيجابي الذي عم البلاد الأيوبية جراء تطبيق هذا الحق، والسلبيات التي حدثت بسبب الاستبداد بالرأي ، وتأتي هذه الدراسة في إطار البحث عن أوضاع حرية الرأي والنقد والتعبير في تلك الحقبة ، ومدى التزام الدولة الأيوبية في تطبيق المبادئ الإسلامية الخاصة بحرية الرأي ، وهل شكّل الاهتمام بمنح الرعية حق حرية النقد والتعبير السمة الغالبة في تلك الحقبة فأصبحت بذلك امتدادًا للمراحل الأولى للدولة الإسلامية ؟؟ أم أن تلك الحقوق كانت منقوصةً وأصبح هناك فجوة كبيرة بين المبادئ والتطبيق؟ اعتمد الباحث خلال البحث على منهج البحث العلمي التاريخي الاستقرائي التحليلي الذي يستخدم في الكتابات التاريخية والذي يهتم بدراسة المعلومات والحقائق التي تتضمنها المصادر.

الكلمات المفتاحية:
العصر الأيوبي، حرية الرأي، النقد

تاريخ المقالة:
تاريخ اســـــتلام المقالـــة: 2 أغسطس 2021
تاريخ استلام النسخة النهائية: 29 أغسطس 2021
تاريخ قبـــول المقالـــــة: 4 سبتمبر 2021

Scientific Journal of Faculty of Arts 11 (1) 2022, 107 – 127
المجلة العلمية لكلية الآداب
https://artdau.journals.ekb.eg/

Freedom of Criticism and Expression in the Ayyubid Era (567-648AH/1171-1250AD)

Mohamed Farag Hafez Khafaji
PhD researcher -Department of history -Faculty of Arts - Damietta University

Abstract

The study aims to shed light on the right of criticism and expression as one of the legitimate rights urged by the true Sharia, and was the Ayyubid state committed to granting this right to the subjects or not?. The study showed in many points that the Ayyubid authorities granted the parish the right to advice and expression, and sometimes harsh criticism of the sultans and princes without intimidation or coercion, and the positive impact that pervaded the Ayyubid countries as a result of the application of this right, and the negatives that occurred due to tyranny in opinion This study comes within the framework of searching for the conditions of freedom of opinion, criticism and expression in that era, and the extent of the Ayyubid state's commitment to applying the Islamic principles of freedom of opinion. Was the interest in granting the subjects the right to freedom of criticism and expression the dominant feature in that era, thus becoming an extension of the early stages of the Islamic state? Or were those rights lacking and there was a big gap between principles and implementation??.

.**Keywords** : Ayyubid, criticism, opinion freedom

Article history:
Received 2 August 2021
Received in revised form 29 August 2021
Accepted 4 September 2021

1. المقدمة

تعتبر قضية حرية النقد والتعبير من الموضوعات المهمة التي تشغل ضمير العالم المعاصر؛ لكنها لا تشغل بال الباحثين في العصور القديمة لاسيما العصور الإسلامية المتعاقبة، وذلك لعدم وفرة المعلومات المباشرة التي تتناول هذه القضية في المصادر المعاصرة؛ رغم أن الحكام المسلمين كانوا حريصين على إعطاء رعاياهم الحق في التعبير والنصح والتوجيه والنقد اللاذع إذا استدعى الأمر ذلك.

2. منهج الدراسة

سوف يعتمد الباحث خلال البحث -إن شاء الله- على منهج البحث العلمي التاريخي الاستقرائي التحليلي الذي يستخدم في الكتابات التاريخية والذي يهتم بدراسة المعلومات والحقائق التي تتضمنها المصادر.

3. أهداف الدراسة

وتأتي هذه الدراسة في إطار البحث عن أوضاع حرية الرأي والنقد والتعبير في تلك الحقبة، ومدى التزام الدولة الأيوبية في تطبيق المبادئ الإسلامية الخاصة بحرية الرأي، وهل شكّل الاهتمام بمنح الرعية حق حرية النقد والتعبير السمة الغالبة في تلك الحقبة فأصبحت بذلك امتدادًا للمراحل الأولى للدولة الإسلامية؟؟ أم أن تلك الحقوق كانت منقوصةً وأصبح هناك فجوة كبيرة بين المبادئ والتطبيق؟؟

4. اسباب اختيار الموضوع

1- نقص الدراسات التاريخية التي تتحدث عن الموضوع.
2- إبراز دور الدولة الأيوبية في مجال تطبيق حرية النقد والتعبير.
3- الكشف عن سبق وتميز الدولة الإسلامية في هذا المجال.
4- حاجة الأمة الإسلامية إلى دراسات تظهر أسباب قوة المسلمين في العصور الماضية.
5- إثراء المكتبة التاريخية الإسلامية بدراسة وافية الحقائق بموضوعية دون تشويه أو تطويع أو تجميل.

لقد بلغ من اهتمام الإسلام بحرية الرأي أن اعتبرها ضرورةً واجبةً لا مجرد حق؛ لأنها تشكل أساساً ونقطةَ ارتكاز لمبادئَ شرعيةٍ وأحكام كلية؛ مثل الشورى والاجتهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكون ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ؛ فيجب على المسلم إذا ما ظهر له الحق والصواب في أمر من الأمور إبداء النصح وإسداء الرأي ولو لم يطلب منه ذلك؛ عملا بواجب الأمر بالمعروف إذا ظهر

تركه والنهي عن المنكر إذا ظهر فعله [1]قال تعالى (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ)[2]

اشتهر بعض السلاطين الأيوبيين بحرصهم على تطبيق شرع الله ومنح الرعية الحق في النصح والتعبير وحق النقد اللاذع أحياناً ؛ وكان من نتيجة هذا أن تجرأ العلماء والفقهاء وسائر الناس عليهم في بعض المواقف، أبرزها حينما وقف الشيخ المجاهد عبدالله اليونيني (ت617هـ / 1221م)(3) الذي كان لا يهاب الملوك منتقداً في أسواق دمشق العُملة التي أصدرها السلطان العادل الأيوبي (596:615هـ /1200-1218م) [4]، ولما بلغ السلطان العادل ذلك قام بإبطالها في الحال (1) بل أن

---

(1) عبدالوهاب عبدالعزيز الشيتاني : (حقوق الإنسان وحرياته الأساسية في النظام الإسلامي المعاصر ، مطابع الجمعية الملكية ، ط1 ، عمان ، 1981م،) ص 565 ؛ محمد سعيد محمد إلهامي (تطبيقات حقوق الإنسان في عهد الخلافة الراشدة ،رسالة دكتوراة غير منشورة ، كلية الدراسات العليا ، الجامعة الأردنية ، عمان ، 2006)، ص 200

(2) التوبة ، ص 71.

(3) الشيخ عبد الله اليونيني، وهو ابن عثمان بن عبد العزيز بن جعفر، الزاهد الكبير، الشهير بأسد الشام. كان شيخا كبيرا مهيبا طوالا، حادّ الحال، تامّ الشجاعة، أمّارا بالمعروف، نهاء عن المنكر، كثير الجهاد، دائم الذّكر، عظيم الشأن، منقطع القرين، صاحب مجاهدات وكرامات. وقيل: كان قوسه ثمانين رطلا، وما كان يبالي بالرجال قلّوا أم كثروا. لما قدم الشيخ حمص للغزاة قدّم له الملك المجاهد أسد الدّين حصانا من خيله، فركبه الشيخ ودخل في العدو، فعمل العجائب، وما قامت غزاة بالشام قطّ إلّا حضرها. ابن العماد: عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي (1089هـ /1678م): شذرات الذهب في أخبار من ذهب (تحقيق زكي الأرناؤوط ، دمشق ، 1985م)، ج7 ، ص 133-134.

(4) الملك العادل سيف الدين ، أبو بكر ابن الأمير نجم الدين أبي الشكر أيوب بن شاذى بن مروان ، وكان مولد العادل بمدينة بعلبك وأبوه أيوب نائبا عليها للأتابك زنكى وهو أصغر من أخيه صلاح الدين يوسف بسنتين ، وكان عاقلا دينا محبا للعلماء والصلحاء . وقسم الممالك في أولاد ، وصار هو يتردد في الممالك بينهم ، وينتقل من مملكة إلى أخرى ؛ فكان يصيف بالشام لأجل الفواكه والمياه الباردة ، ويشتي بالديار المصرية ؛ لإعتدال الوقت فيها . وكان كثير الأكل ؛ يأكل وحده خروفا لطيفا مشويا ، وكان كثير النكاح ، وكان يحب من يؤاكله ، وكان غالب أكله مثل الخيل في الليل . ودام في الملك ، إلى أن مرض . وطال مرضه وتوفى بعالقين ببلاد الشام في ثامن جمادى الآخر سنة 615هـ /1218م . لمزيد من التفاصيل (الصفدي : صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله (764هـ /1363م) الوافي بالوفيات ، (تحقيق :أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى ، دار إحياء التراث - بيروت ، 2000م) ، ج2، ص 168 ؛ ابن تغرى بردي : يوسف بن تغرري بردي الأتابكي (874ه /1469م)، مورد اللطافة في من ولى السلطنة

العادل أتى إليه وهو يتوضأ ووضع دنانير تحت سجادته وطلب منه الدعاء له ، فردها إليه وقال كيف أدعو إليك والخمور دائرة في دمشق؟ أبطلها على الفور (2) ، ولما جلس المعظم عيسى ابن العادل (616-624هـ /1219-1227م) (3) بين يديه وطلب الدعاء منه ، فقال له "ياعيسى لاتكن نحسًا مثل أبيك أظهر الزغل ولا تفسد على الناس المعاملة "، وكان يقصد كثرة الفلوس المزيفة بدمشق وطلب منه أن يقضي عليها [4].

وحرص الملك الأمجد الأيوبي (576-626هـ /1180-1229م)[5] حاكم بعلبك أن يتردد في الزيارة عليه وكان الشيخ اليونيني دائم توجيه النقد والنصح وكان يقول له يا أميجد يقصد (التقليل من شأنه)

والخلافة ، (تحقيق نبيل محمد عبدالعزيز ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، 1987م) ، ج2، ص 11.

(1) سبط ابن الجوزي : شمس الدين أبي المظفر يوسف بن قز أوغلي بن عبد الله (654هـ/1256م) مرآة الزمان في تواريخ الأعيان ، _تحقيق ابراهيم الزيبق ، دار الرسالة العلمية ، دمشق ، 2013م)، ج22 ،ص249

(2) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، (دار الحديث ، القاهرة ، 2006م) ، ج16 ،ص 112.

(3) كَانَ يُوْصَف بِالشَّجَاعَة وَالكرم وَالتَّوَاضع شرح "الجامع الكبير" وصنف في العروض، وله كتاب "السهم المصيب في الرد على الخطيب".،وقد كان المعظم جعل لمن يحفظ "الجامع" مائتي دينار، ولمن يحفظ "المفصل" مائة دينار، ولمن يحفظ "الإيضاح" ثلاثين دينارا، سوى الخِلَع ، وَحَجّ فِي سَنَةِ إِحْدَى عَشْرَةَ، وَأَنشَأَ البِرَك، وَعَمِلَ بِمُعَان دَار مَضيف وَحمَّاماً. وَكَانَ يَبحث وَيُنَاظر، وَفِيْهِ دَهَاء وَحزم، كَانَ المُعَظَّم شُجَاعاً فَقِيْهاً يَشرب الْمُسكر، وَأَسّس ظلماً كَثِيْراً، وَخرب بَيْت المَقْدِسِ. وَكَانَ الكَامِل يَخَافه، مَعَ أَنَّهُ كَانَ يَخطب لِلْكَامِل فِي بلاَده وَيَضرب السّكة باسمه لمزيد من التفاصيل انظر : الذهبي :سير أعلام النبلاء ،ج16 ، ص 123. ؛ابن قطلوبغا : أبوا الفدا زين الدين قاسم السودوني (879هـ/1474م) تاج التراجم ، (تحقيق : محمد خير رمضان ،دار القلم – دمشق ، 1992م) ،ص 226

(4) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج16 ، ص 112

(5) الملك الامجد مجد الدين أبو المظفر بهرام شاه ابن نائب دمشق فروخشاه ابن الملك شاهنشاه بن أيوب صاحب بعلبك بعد والده، ملكه إياها عم أبيه السلطان صلاح الدين فدامت دولته خمسين سنة، وكان جوادا كريما شاعرا محسنا له نظم رائق وله " ديوان ".قهره السلطان الملك الاشرف موسى، وأخذ منه بعلبك قبل موته بعام، وملكها لاخيه الصالح، فتحول الامجد المذكور إلى دمشق، ونزل بداره داخل باب النصر.، قتله مملوك له مليح في شوال سنة ثمان وعشرين وست مئة، فدفن عند والده بالمدرسة الفروخشاهية..الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج16 ، ص 243 ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج 10/ ، 190. ؛ ابن شاكر الكتبي : محمد بن شاكر بن أحمد (ت 764هـ /1363م)، فوات الوفيات ، (تحقيق ، إحسان عباس ،دار صادر ، بيروت ، 1973م) ، ج1 ، ص 226 .

أنت تظلم وتفعل وتصنع وهو يعتذر إليه [1] ، ولما وضع ديوان المواريث الحشرية(2) ببعلبك يده على تركة أحد الأثرياء المتوفَّين وكان من يموت ويترك تركة دون وريث تؤول تركته إلى الدولة، فطلب الشيخ اليونيني رئيس الديوان ووبخه وقال له إن الرجل المتوفى له وريث شرعي وهو يعرفه، وسأله كيف تضم أملاكه إلى ديوان المواريث ؟ ، فأخبره رئيس الديوان بأن هذه التعليمات صادره من الأمجد صاحب بعلبك، فغضب الشيخ وقال له قم قطع الله يدك ويد السلطان معك ، وغادر بعلبك إلى دمشق واستقر بها [3]

ويبدو أن الشيخ اليونيني كان لديه إثباتات تؤكد مصادرة الأمجد لتركة المتوفي ، وتجاهل ورثته، ولما لم يستجب لنصيحة الشيخ؛ فقرر الشيخ مغادرة بعلبك؛ حتى لا تسقط هيبته أمام حاكم بعلبك .

ومارس العلماء النقد اللاذع إزاء المواقف السياسية لبعض السلاطين والأمراء ، وتجلى ذلك في الكثير من المواقف ، فعندما شعر الشيخ عبد الرحمن اليمني (ت 620هـ- 1242م) بتقصير الملك العادل عن أداء واجبه تجاه الصليبيين ودخل عليه وانتقده بشده في مجلسه[4].واتخذ الشيخ شهاب الدين الطوسي (ت 596هـ- 1218م) [5]

---

[1] سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج22 ص 249؛ ابن العماد :شذرات الذهب ،ج5 ،ص74

[2] هي تركة من لاوارث له من أصحاب الفروض والعصبة وذوي الأرحام ، وكان مباشرو هذا الديوان في يشترطون على غسالي الموتى ألا يجهزوا الميت إلا بعد إعلامهم ، ثم يقوم هؤلاءالمباشرون بحصر تركة المتوفي وورثته ، فإن لم يجدوا له وارث حولت التركة إلى بيت المال .ابن مماتي :الأسعد ابن مماتي (606هـ/1209م) قوانين الدواوين (تحقيق عزيز سوريال عطيه ، مكتبة مدبولي ، القاهرة) ص 319 ؛ البيومي إسماعيل الشربيني : النظم المالية في مصر والشام زمن سلاطين المماليك (الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 1998م) ص 168 .

[3] اليونيني : قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد (726هـ/1326م) ذيل مرآة الزمان ، (دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة ،1992م) ، ج2 ، ص 48

[4] أبوشامة ، تراجم رجال القرنين السادس والسابع الذيل على الروضتين ،(دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2002م) ، ص 206 .

[5] هو من أكبر الأئمة الشافعية ورئيسها وإليه فتياها وتدريساها وكم واجه من الملوك بالحق والمنكر وأنكر عليهم ماينكرونه من العرف ويعرفونه من النكر، ولما وصل إلى مصر كان تقي الدين عمر بن شاهنشاه ابن أيوب متوليها نائباً عن السلطان صلاح الدين ، فأعجب به فولاه مدرسته بمصر المعروفة بمنازل العز ، وظل [15] فيها حتى مات ، ولسمعته الطيبة مشى في جنازته الأصاغر والكبائر من الملوك والأمراء والعوام . (أبوشامة : الروضتين ، ص 468؛ ابن كثير : المصدر السابق ،ج13 ، ص 24)

لهجة أكثر حدة وتعنيفاً ودخل على الملك العادل في حضور وزيره صفي ابن شكر(630هـ/1233م) [1] وقال له "أنت فرعون" ، ولما مات الشيخ شهاب الدين مشى الملك العادل في جنازته ولم يتأثر بما قاله له ، فخلافهما في الرأي لم يجعل العادل يستخدم صلاحياته في الفتك به [2] .

وتجلى ذلك أيضاً حينما زار الأمير العادل سيف الدين الشيخ محمد بن قدامة المقدسي (ت 607هـ/1211م) [3] أثناء زيارة السلطان صلاح الدين إلى بيت المقدس ، وكان يصلّي فلم يلتفت إليه، وكتب الشيخ ابن قدامة رسالة إلى الملك المعظم عيسى بدأها بقوله (إلى الولد المعظم عيسى) ، ولم يذكر المؤرخ شيئا عن نص الرسالة أو المناسبة التي كُتبت فيها ، لكن من الواضح أنها كتبت بدافع النقد الشديد للمعظم عيسى ، وأن

---

(1) أصلة من الدميرة قرية من أعمال مصر ، كان وزيراً مهيبا عالما فاضلا ،له معرفة بقوانين الوزارة وعلى دولة العادل بأكملها ،كان مالكي المذهب ، محب للعلم والعلماء ، وكانت المدارس في عهده عامرة ، وكان العادل كان قد تغير عليه في آخر أيامه ، ونفاه خارج البلاد ، فلما مات العادل ، راسل ابنه الكامل السلطان الجديد ، فسمح له بالعودة وقلده الوزارة من جديد وتوفى سنة 630هـ /1233م. سبط ابن الجوزي :المصدر السابق ج22 ،ص 320

(2) أبوشامة ، (الذيل على الروضتين) ، ص 29-30 ؛ شوكت الأتروشي : الحياة الفكرية في مصر خلال العصر الأيوبي ،(الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 2016م) ، ص 94.

(3) ولد بجمّاعيل سنة ثمان وعشرين وخمسمائة، وهاجر مع والده إلى دمشق لاستيلاء الفرنج على الأرض المقدسة، وسمع الحديث من أبي المكارم عبد الواحد بن هلال وطائفة كثيرة، وكتب الكثير بخطّه، وحفظ القرآن، والفقه، والحديث، وكان إماما، فاضلا، مقرئا، زاهدا، عابدا، ه. وكان إذا جاء شيء إلى بيته فرّقه على الخاص والعام ، و كان يحمل من الجبل إلى بيوت الأرامل واليتامى، ويحمل إليهم في الليل الدراهم والدقيق ولا يعرفونه.. وكان يؤثرالفقراء ويدع أهله محتاجين، وبنى المدرسة والمصنع بعلو همته، وكان مجاب الدعوة، وما كتب لأحد ورقة للحمّى إلّا وشفاه الله تعالى. ولما كان عشية الاثنين ثامن عشري ربيع الأول، جمع أهله واستقبل القبلة، ووصاهم بتقوى الله تعالى ومراقبته، وأمرهم بقراءة يس وكان آخر كلامه إِنَّ الله اصْطَفى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ 2: 132 [البقرة: 132] .وتوفي- رحمه الله- وغسّل في المسجد، ومن وصل إلى الماء الذي غسّل به، نشّف به النساء مقانعهن والرجال عمائمهم ، وكان يوما مشهودا، ولما خرجوا بجنازته من الدّير كان يوما شديد الحرّ، فأقبلت غمامة ، فأظلت الناس إلى قبره. وكان يسمع منها دويّ كدويّ النّحل، ولولا المبارز المعتمد، والشجاع بن محارب، وشبل الدولة أحاطوا به بالسيوف، لما وصل من كفنه إلى قبره شيء. السبكي : تاج الدين عبد الوهاب بن علي (759 هـ/ 1358م) معجم الشيوخ ،(تحقيق :بشار عواد وآخرون ، دار الغرب الإسلامي، 2004م) ، ج1 ، ص 117 ؛ابن العماد :المصدر السابق: ج 7 ، ص 55-56 ؛ عمر رضا كحالة ، معجم المؤلفين ، (مكتبة المثنى ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، د.ت)،ج6 ، ص 243)

ما دفع ابن قدامة المقدسي أن يبدأ الرسالة بهذا الشكل، هو أنه أيضا يعلم منزلته عند المعظم ويعرف مساحة الحرية الكبيرة المتاحة له [1].

ومارس الشيخ ابن قدامة دورا مهما في تقديم النصح للأمراء، وكان يقدم شفاعات كثيرة لوالي دمشق المبارز المعتمد (ت 623هـ/ 1226م)(2) لفك حبس الكثيرين أو من لديهم أحكام ، مستغلا سقف الحرية الموجود بينهما وكان المبارز لا يرد شفاعته لثقته به وثقته في علمه وورعه ، وفي النصيحة التي يقدمها إليه[3]

ورغم الغيرة الشديدة التي انتابت المعظم عيسى من السيف الآمدي وكنيته أبو القاسم (ت 631هـ/1234م) (4) لاشتغاله بعلم الكلام والمنطق وعلوم الأوائل وكان لا يستطيع أحد منهم أن يجاريه في الكلام ، إلا أن ذلك لم يمنع المعظم عيسى من الاستعانة به في إدارة المدرسة العزيزية ، وهذا يعكس جانبا مهما لقبول الآخر في الحقبة الأيوبية[5] .

---

(1) سبط ابن الجوزي : المصدر السابق : ج22 ، ص 177

(2) ولد بالموصل وقدم الشام فخدم فرخشاه بن شاهنشاه أبن أيوب ، ولي دمشق نيابةً عن بدر الدين الشحنة أول ولاية صلاح الدين، ثم استقلَّ بالولاية إلى أن عُزِلَ سنة سبع عشرة وست مئة، وصلاح الدين فتح دمشق سنة سبعين أو إحدى وسبعين ، فكانت ولايته نيابةً واستقلالًا قريبًا من خمسين سنة، واستخدمه العادل في بعض الأمور بدمشق ، فأحسن السياسة ، فولاه دمشق ، وكان المعتمد ديناً ورعاً عفيفاً ، وكانت دمشق في أيام ولايته في أحسن الأحوال . (سبط ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ج22 ،ص 281 ؛ أبوشامة " الذيل على الروضتين ص 227.)

(3) العمري : شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى (749هـ/1348م) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار،(المجمع الثقافي، أبوظبي ، 1423هـ /2002م)، ج8 ، ص206.

(4) أبو الحسن علي بن أبي علي بن محمد بن سالم التغلبي الفقيه الأصولي، الملقب سيف الدين الآمدي؛ كان في أول اشتغاله حنبلي المذهب، وانحدر إلى بغداد وقرأ بها على ابن المني أبي الفتح نصر بن فتيان الحنبلي ، وبقي على ذلك مدة ثم انتقل إلى مذهب الإمام الشافعي، ثم انتقل إلى الشام واشتغل بفنون المعقول وحفظ منه الكثير وتمهر فيه وحصل منه شيئاً كثيراً، ولم يكن في زمانه أحفظ منه لهذه العلوم. ثم انتقل إلى الديار المصرية واشتهر بها ، ثم حسده جماعة من فقهاء البلاد وتعصبوا عليه ونسبوه إلى فساد العقيدة وانحلال الطوية والتعطيل ومذهب الفلاسفة والحكماء، وكتبوا محضراً يتضمن ذلك، ووضعوا فيه خطوطهم بما يستباح به الدم درس ثم عزل عنها لسبب تهم فيه وأقام بطالاً في بيته. وتوفي على تلك الحال 630هـ /1233م .لمزيد من التفاصيل انظر ابن خلكان : بو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم (681ه/1282م) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، (تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، 1971م) ،ج3 ، 293 ؛ ابن العماد :المصدر السابق ،ج5 ، 145)

(5) سبط ابن الجوزي : المصدر السابق ، ج22،ص 333

وينبغي ألا نغفل الرأي الآخر الذي وجد حتى في عصر السلطان الكامل (615 -636هـ /1218- 1238 م)(1) ، غير أنه قمعه في قسوة، ومثال ذلك أن أحد قادة جيشه ويدعى سيف الدين ابن أبي زكرى حذره من التفريط في بيت المقدس وحقوق المسلمين، وطالب بمحاربة صديقه الألماني ، وطالبه أيضاً أن يستدعي ابن أخيه الملك الناصر داود صاحب دمشق (2)، وشقيقه الملك الأشرف وعسكر حلب ، ومقاتلة هذا العدو : فإما لنا وإما علينا، ولا يقال عن السلطان إنه أعطى الفرنج القدس، وعلى الرغم من تلك النصيحة الصادقة التي حفظها التاريخ لابن أبي زكرى إلا أن الكامل اعتقله وأرسله إلى مصر حيث سجن هناك (3)

ومارست الرعيّة دورها الكبير في انتقاد السلطة الأيوبية بل والثورة عليهم أحيانا، وتجلى ذلك حينما ثار العالم الإسلامي كله على السلطان الكامل محمد بعد تسليمه بيت المقدس للصلبيين سنة 626هـ /1229م، وسار العلماء والوجهاء والعامة إلى مخيم الكامل في تظاهره مهيبة؛ اعتراضاً منهم على تسليم بيت المقدس للصلبيين (4) ،أعلن الناصر

(1) محمد بن محمد بن أيوب ابن شادي بن مروان السلطان الملك الكامل ناصر الدين أبو المعالي وأبو المظفر ابن السلطان الملك العادل أبي بكر ، ولد بمصر سنة ست وسبعين وخمس مائة وأجاز له العلامة ابن بري وأبو عبد الله بن صدقة الحراني وعبد الرحمن بن الخرقي وخرج له أبو القسم ابن الصفراوي أربعين حديثاً وسمعها جماعة، تملك الديار المصرية أربعين سنة نيابة عن والده ثم سلطانا عليها . لمزيد من التفاصيل انظر : (الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج1 ، ص 158)

(2) الملك الناصر داود بن عيسى بن محمد بن أيوب، الملك الناصر صلاح الدين أبو المفاخر ابن الملك المعظم عيسى بن الملك العادل الكبير ابن أيوب؛ ولد في جمادى الآخرة سنة ثلاث وستمائة بدمشق، وتوفي سنة ست وخمسين وستمائة؛ سمع ببغداد من القطيعي وغيره، وبالكرك من ابن اللتي، وأجاز له المؤيد الطوسي؛ وكان حنفي المذهب عالماً فاضلاً مناظراً ذكياً، له اليد البيضاء في الشعر والأدب، لأنه حصل طرفاً جيداً من العلوم في دولة أبيه، وولي السلطنة سنة أربع وعشرين بعد والده، وأحبه أهل دمشق، ؛ وعقد نكاحه على بنت عمه الكامل، ثم إن الكامل تغير عليه، ففارق ابنته قبل الدخول ، توفى سنة 656ه .(ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات : ج1 ، ص 426.)

(3) ابن شداد : عز الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن إبراهيم (684هـ /1285م) ، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، (تحقيق : يحيى زكرياة عباده ، وزارة الثقافة ، سورية ،1991م) ، ص 101 .

(4) المقريزي ، أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي (845هـ /1441م) ،السلوك لمعرفة دول الملوك ،(تحقيق : محمد عبدالقادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1997م) ، ج1 ،ص 354 .

داوود الحداد في دمشق، لما تعرض له الإسلام من خيانة، وأقيم مجلس وعظ ، رثيت فيه بيت المقدس [1]

وتوغرت القلوب على الكامل ، وكان العلماء يهاجمونه على المنابر في القاهرة ودمشق وجميع المدن الإسلامية لتضحيته بالمصلحة الإسلامية في مقابل مصلحته الشخصية [2]، فجمع الْحافظ شمس الدّين سبط ابن الْجوزي ت(654هـ /1256م)[3] الناس بِجَامع دمشق وانتقد بشدة تفريط السلطان الكامل محمد في القدس وعدّد فضائل بيت الْمقَدس ، وسط حالة من الحزن عمت وجوه الناس[4] وذكر الحنبلي [5] جزءًا من الخطبة التي ألقاها سبط ابن الجوزي منددا بما فعله السلطان الكامل : "

---

(1) أبي الفدا : تاريخ أبي الفدا، ج2 ، ص 427 ؛محمد سهيل طقوش ، تاريخ الإيوبيين في مصر والشام وأقليم الجزيرة ، (دار النفائس ، بيروت ، 2008م) ، ص 348 .

(2) الذهبي : تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، (تحقيق: عمر عبد السلام تدمري دار الكتاب العربي، بيروت ، 1987م) ج45 ، ص32 ؛ هاملتون آ.ر.جب : صلاح الدين الأيوبي دراسات في التاريخ الاسلامي (تعريب :يوسف إيبش ، دار بيسان للنشر والتوزيع ، لبنان ، 1995م) ص 215 ؛ قاسم عبده قاسم وعلي السيد علي :الأيوبيون والمماليك التاريخ السياسي والعسكري ،(دار عين للدراسات الإنسانية ، القاهرة ،د.ت) ، ص 99 .

(3) عبد العزيز بن يوسف بن قزاغلي، الإمام عز الدين بن العلامة أبي المظفر سبط ابن الجوزي صاحب مرآة الزمان ، مولده بدمشق، وتفقه وبرع في المذهب، وعد من الفقهاء الحنفية، ودرس بالعزية التي تعرف بالميدان الكبير بعد والده، وكان ذكياً وله فهم جيد وتصور صحيح، واشتغال كبير، تفقه على والده وغيرهن وبرع في الفقه، وشارك في عدة علوم، ومات سلخ شوال سنة ست وستين وستمائة، ودفن عند والده، رحمهما الله تعالى . لمزيد من التفاصيل انظر. (ابن شاكر الكتبي، المصدر السابق ، ج4 ، ص 356 ؛ ابن تغرى بردي : يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي (874هـ/1469م) : المنهل الصافي المستوفي بعد الوافي ،(تحقيق د . محمد محمد أمين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، د.ت) ، ج7 ،ص 305 .)

(4) ابوالفدا : عماد الدين إسماعيل بن علي (732هـ/ 1332م) المختصر في أخبار البشر(المطبعة الحسينية المصرية ، القاهرة ،د.ت) ، ج1 ، ص 407 ؛ المقريزي : السلوك ، ج1 ، ص 355 ؛ الحنبلي : عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد العليمي (867هـ /1463م): الأنس الجليل بتاريخ القدس والجليل ، (تحقيق : عدنان يونس عبد المجيد نباتة ،مكتبة دنديس ، عمان ، 1999م) ،ج1 ، ص406 ؛ حمدي عبدالمنعم حسين ، (دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 2000م) ، ص 120

(5) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب: تحقيق مديحة الشرقاوي ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، 1996م)، ص 268

وانقطعت من بيت المقدس وفود الزائرين ، يا وحشة المجاورين ، كم كان لهم في تلك الأماكن من ركعة ، كم جرت لهم على تلك المساكن من دمعة ، تالله لو صارت عيونهم عيوناً لما وفتً ، ولو تقطعت قلوبهم أسفاً لما اشتفت ، أحسن الله عزاء المؤمنين، يا خجلة ملوك المسلمين، لمثل هذا الحادث تسكب العبرات ، لمثلها تتقطع القلوب من الحسرات " .

ويرى الباحث أنه على الرغم من أن فترة حكم الكامل شهدت خيراً كثيرا وكان مقربا إلى الرعية ، إلا أنه تعرض لهجوم شديد ونقد جارح بسبب تسليمه بيت المقدس للصليبين ، ولما مات لم يحزن عليه أحد من الرعية ولم يلبسوا عليه ثوب الحداد ، وظل النضال وضغط الرأي العام مستمراً حتى استطاع الصالح نجم الدين أيوب (638-646هـ/1240-1248م) [1] بمساعدة الخوارزمية استعادة بيت المقدس من أيدي الصلبيين سنة 642هـ /1245م [2] .

ومن إبداع الاحتجاجات وابتكارها على السلطات الأيوبية ما فعلته امرأة دمشقية بقص شعرها وأرسلته إلى خطيب المسجد الكبير بدمشق أبي قدامة الشامي وقالت له " اجعله قيدا لفرسك في سبيل الله " منتقدة تخاذل الأيوبيين في الحرب على الصلبيين المحتلين للبلاد الإسلامية ، وذاعت قصتها في دمشق ففعلت غالبية نساء دمشق مثلها ، يقول الشيخ فعملت من الشعور التي عندي شكلا لخيل المجاهدين وكرفسارات [3] ، وصعد الشيخ إلى المنبر في حضور والي دمشق المبارز المعتمد (571-617هـ /1175-1220م) [4]وطلب بإحضار الأشكال التي عملها من

---

[1] أيوب، السلطان الملك الصالح نجم الدين ابن السلطان الملك الكامل محمد بن السلطان الملك العادل أبي بكر محمد بن أيوب؛ ولد سنة ثلاث وست مائة بالقاهرة، وتوفي سنة سبع وأربعين وست مائة.
وكان ملكاً مهيباً جباراً ذا سطوة وجلالة، وكان فصيحاً، حسن المحاورة عفيفاً عن الفواحش، فأمر مماليكه الأتراك. ولما خرج من مصر، خاف أخاه العادل فقتله سراً، فلم يمتع، ووقعت الآكلة في رجله بدمشق في فخذه. ونزل الإفرنس بجيوشه على دمياط، فأخذها، فسار إليه الصالح في محفة حتى نزل بالمنصورة عليلاً، ثم عرض له إسهال إلى أن توفي ليلة نصف شعبان من السنة المذكورة (الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج3 ، ص 350)

[2] المقريزي : السلوك ، ج1 ، 420

[3] الكرفسة مشية المقيد ، وأن تقيد البعير وتضيق عليه ، وتكرفس الرجل : انضم ودخل بعضه في بعضه ، والكرفسه قطع عرقوب الدابة .ابن منظور : لسان العرب ،ج6 ، ص 196 .

[4] ولد بالمَوْصِل، وقدم الشَّام، وخَدَمَ فَرُّخْشاه بن شاهنشاه ابن أخي صلاح الدين وتقلبتْ به الأحوال، واستنابه بدر الدين الشحنة بدمشق، ثم ولاه العادل مستقلًا، فأحسن السِّياسة، ولَطَفَ بالرَّعية، [فكان للكبير منهم ولدًا، وللصغير والدًا،

شعور النساء وألهب حماس الحضور ودفع السلطة الأيوبية دفعا للخروج الفوري لملاقاة الفرنج ، وعلى الفور خرجت القوات من دمشق بقيادة المعظم عيسى بن العادل، والتقى قوات الفرنج وهزمهم هزيمة منكرة بالقرب من عكا، واستولت على قلاع عديدة وحاصرهم حصاراً شديدا وأسر منهم عدد كثيرا ،حتى طلب الفرنج الصلح من السلطان العادل [1]

كما مارست الرعية حقها في الاحتجاج على السلاطين ، ففي عام 610هـ/ 1213م ، ثار أهل القاهرة على الأمير الكامل محمد نائب مصر عن أبيه الملك العادل ، حينما شرع أهل القاهرة في بناء مسجد قد زال أثره بجانب الكنيسة المعلقة ، فتحرك الكامل ورفض عمارة المسجد ظناً منه أنه لم يكن موجوداً هناك بالأساس وحاول منعهم ، فظن العوام أنه يحابي نصارى مصر إكراما لطبيبه النصراني أبي شاكر (ت613هـ/ 1217م) (2) ، فثاروا عليه ورجموه بالحجارة حتى أنه احتمى بدار صناعة السفن بالفسطاط حتى هرب إلى القلعة [3] .

ودخل رجل أعجمي إلى دار العدل في حضرة الظاهر غازي صاحب حلب، وقال له "أنت فرعون" بسبب جوره واتخاذ مظاهر الأبهة

وللمتوسط أخًا ، ولما مات السلطان العادل ، اعتقله المعظم عيسى مُدَّة في القلعة، فأنزله من القلعة إلى داره، وحَجَرَ عليه، وبالغ في التَّشديد ، وكانت وفاته في حادي عشرين ذي القَعْدة يوم السبت في عام 623هـ، ودفن بقاسيون في التربة التي أنشأها بالجبل عن ثمانين سنة. سبط ابن الجوزي : المصدر السابق ، ج22 ،ص 281.

(1) أبوشامة : الذيل على الروضتين ،ص 107-108

(2) هو الحكيم موفق الدين أبوشاكر بن أبي سليمان داود، وكان متقناً لصناعة الطب متميزاً في علمها وعملها جيد العلاج مكيناً في الدولة وقرأ صناعة الطب على أخيه أبي سعيد بن أبي سليمان، وتميز بعد ذلك واشتهر ذكره، وكان السلطان الملك العادل قد جعله في خدمة ولده الملك الكامل فبقي في خدمته، وحظي عنده الحظوة العظيمة، وتمكن عنده التمكن الكثير، ونال في دولته حظاً عظيماً وكانت له منه إقطاعات ضياع وغيرها، ولم يزل أبدا يفتقده بالهبات الوافرة، والصلات المتواترة، وكان أيضاً الملك العادل يعتمد عليه في المداواة، ويصفه بحسن العلاج، وكان يدخل أيضاً في جميع قلاعه وهو راكب، مثل قلعة الكرك وقلعة جعبر وقلعة الرها وقلعة دمشق، ثم قلعة القاهرة، مع صحة جسمه، ولقد بلغ من أمره عند سكن الملك الكامل بقصر القاهرة المحروسة أن أسكنه عنده فيه ، وكان الملك العادل ساكناً بدار الوزارة . أبن أبي أصيبعة: أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجي موفق الدين (668هـ/1270م) :عيون الأنباء في طبقات الأطباء : (تحقيق نزار رضا " دار الحياة ، بيروت ، د.ت)،ص 389 .

(3) الخزرجي : صفي الدين الحسين بن جمال الدين الأنصاري ، سير الأولياء في القرن السابع الهجري ، (تحقيق محمود ياسين وآخرون ، دار القلم ، بيروت ، د.ت)، ص67 .

والعظمة، وصاح في كل الأمراء والقضاة الموجودين وأحمر وجهه عليهم، ولم يحرك الظاهر غازي ساكنا وتركه يرحل [1]

وعارض الشيخ العز ابن عبدالسلام (ت 660هـ /1262 م) الصالح إسماعيل بن الكامل حاكم دمشق الذي حالف الصليبيين وأعطاهم مدينة صيدا وقلعة الشقيف [2]، ووعدهم بجزء من مصر، إذا هم أعانوه على أخيه نجم الدين أيوب سلطان مصر، واستفتى المتدينون من بائعي الأسلحة الشيخ العز ابن عبد السلام في مشروعية بيع الأسلحة للفرنج ، فأفتاهم بحرمة ذلك، وكان العز آنذاك إمام المسجد الأموي ومفتي دمشق، فهاجم السلطان وأوقف الدعاء له ، وجدد دعاء يدعو به على المنبر" اللهم أبرم لهذه الأمة أمرا رشيداً، يعز فيه وليَّك ويذل فيه عدوك ،ويعمل فيه بطاعتك ،وينهى فيه عن معصيتك " والناس يرددون وراءه آمين آمين "، فأمر الصالح إسماعيل بعزله والتضييق عليه[3] .

اتجه العز بن عبدالسلام إلى مصرَ سنة 639هـ /1242م ، فرحّب به حاكمها الصالح نجم الدين أيوب وولاه الخطابة والقضاء، ورغم إكرام السلطان نجم الدين أيوب للشيخ عز الدين إلا أنه لم يجامله ولم يصمت عن منكر أبداً ، فلما طلع إلى السلطان في يوم عيد إلى القلعة (في القاهرة) فشاهد العسكر مصطفّين بين يديه، والأمراء تقبّل الأرض أمامه، فالْتَفَتَ الشيخ إلى السلطان وناداه:" يا أيوب، ما حُجّتك عند الله إذا قال لك: ألم أُبَوِّئ لك ملك مصر ثم تبيح الخمور؟ فقال: هل جرى ذلك؟ فقال: نعم، الحانة الفلانية تباع فيها الخمور وغيرها من المنكرات! فقال: يا شيخنا هذا من أيام أبي. فقال الشيخ: أنت من الذين يقولون: إنا وجدنا آباءنا

---

[1] سبط ابن الجوزي ،مرآة الزمان ، ج22 ، ص 213.

[2] شقيف بفتح أوله، وكسر ثانيه ثم ياء مثناة من تحت، وفاء، وبعد الراء الساكنة نون ثم واو ساكنة، ونون أخرى، والشقيف كالكهف أضيف إلى أرنون اسم رجل إما روميّ وإمّا أفرنجيّ: وهو قلعة حصينة جدّا في كهف من الجبل قرب بانياس من أرض دمشق بينها وبين الساحل.(ياقوت الحموي :المصدر السابق ، ج3 ، ص 356)

[3] السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ،(تحقيق محمود الطناحي وعبدالفتاح الحلو ، دار هجر ، ط2 ،1992م)، ج8 ص 210 ؛ ابن قاضي شهبه: أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر (ت) طبقات الشافعية ،(تحقيق : الحافظ عبدالمعين خان ، عالم الكتب ، بيروت ، 1407هـ/1987م) ،ج2 ،ص 111؛ الزركلي : خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس (1396هـ/1976م) الأعلام ، (دار العلم للملايين ، بيروت ، 2002 م) ، ج4 ،ص 21؛ عامر فتحي محمد الشيخ أحمد ،فن الخطابة في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول دراسة تحليلية أدبية ، (رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب جامعة الشرق الأوسط ، فلسطين ، 2015) ، ص 80 .

على أُمّة وإنّا على آثارهم مقتدون؟ " وقد أمر السلطان بإقفال الحانة فوراً. ثم سأل الشيخَ أحدُ تلامذته: أما خفتَ السلطان وأنت تخاطبه بهذا؟! فقال الشيخ: استحضرتُ هيبة الله تعالى فصار السلطان أمامي كالقطّ [1] .

كما مارس الأدباء النقد الشديد تجاه السلطة، وتجلى ذلك فيما فعله الكاتب الأسعد بن مماتي [2] تجاه بهاء الدين قراقوش[3] نائب صلاح الدين في القاهرة حيث ألف كتاباً بعنوان الفاشوش في حكم قراقوش يعدد فيه مساوئ الأمير قراقوش ، ورغم أن هذا الكتاب نال من سمعة قراقوش [4] ، وردد العوام ماذكرها ابن مماتي وظل على ألسنتهم حتى فترات مديدة ، إلا أن ما فعله ابن مماتي من وجهة نظر الباحث لايمت للواقع بصله ، حيث إن قراقوش كان من الثقات بالنسبة لصلاح الدين ومن الصعب أن يسند إدارة مصر إلى حاكم جائر غير متزن كما وصفه الكتاب ، ومما يدلل على ذلك أيضاً، قراقوش كان من المجاهدين وكان له وقف لافتكاك الأسرى وبنى خان لأبناء السبيل بالقرب من القاهرة للفقراء وعابري السبيل .كما نفى السلطان صلاح الدين الشاعر المشهور ابن عنين[5] إلى الهند بسبب قصيدة هجاه فيها[1].

---

(1) السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، ج8 ، ص211 ؛ جهاد التُرباني ، مائة من عظماء أمة الإسلام غيروا مجرى التاريخ ، (دار التقوى للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة ،2010م) ،ص267 .

(2) سعد أَبُو المكارم ابْن الخطير أبي سعيد مهذب بن مثنا بن زَكَرِيَّاء ابْن أبي قدامَة ابْن أبي مليح مماتي كَانَ نَاظر الدَّوَاوين بالديار المصرية وَفِيه فَضَائِل وَله مصنفات عديدة . لمزيد من التفاصيل انظر : الصفدي ، الوافي بالوفيات ، ج9 ، ص 14 .

(3) قراقوش الْأَمِير الْكَبِير بهاء الدّين الْأَسدي الْخَادِم الْأَبْيَض فَتى أَسد الدّين شيركوه لما اسْتَقل السُّلْطَان صَلَاح الدّين بِملك صر جعله زِمَام الْقصر وَكَانَ مسعوداً مَيْمُون النقيبة صَاحب همة. بنى سور الجيزة فِي الدولة الصلاحية وَلما فتح صَلَاح الدّين عكا سلمهَا إِلَيْهِ فَلَمَّا أَخذهَا الفرنج أَسرُّوا قراقوش فافتكه مِنْهُم بِعشْرَة آلَاف دِينَار . لمزيد من التفاصيل انظر : الصفدي : الوافي بالوفيات ،ج24 ، ص 166 .

(4) عبد اللطيف جمزة : الفاشوش في حكم قراقوش ، دار اليوم ، القاهرة ، (د.ت) ، ص 7

(5) محمد بن نصر الله بن مكارم بن الحسين بن عنين الأديب الرئيس شرف الدين أبو المحاسن الكوفي الأصل الزرعي المنشإ الدمشقي الشاعر صاحب الديوان المشهور، ولد بدمشق سنة تسع وأربعين وخمس مائة، وسمع من الحافظ أبي القاسم بن عساكر، لم يكن في عصره آخر مثله، طوف وجال في العراق وخراسان وما وراء النهر والهند ومصر في التجارة، ومدح الملوك والوزراء وهجا الصدور والكبراء، وكان غزير المادة قيل إنه كان يستحضر غالب الجمهرة، هجا جماعة من رؤساء دمشق في قصيدة سماها مقراض الأعراض

وتجدر الإشارة أن السلطات الأيوبية لم تتسامح مع الشيعة ولم تمنحهم الحرية الكاملة في ممارسة شعائرهم في كل البلاد الخاضعة تحت السيادة الأيوبية ويشير السبكي[2] (أن صلاح الدين أخذ في نصر السنة، وإهانة المبتدعة ، والقبض على الفاطمية ، والانتقام من الروافض، وكانوا بمصر كثيرين)

ودفعت سياسة صلاح الدين في التضييق على الشيعة ومنعهم من ممارسة شعائرهم وإغلاق مساجدهم ومنها الجامع الأزهر، للانقلاب عليه أكثر من مرة ، وكان رد صلاح الدين قاسياً جداً ، وأعدم الشاعر عمارة اليمني [3] الذي قاد أول محاولة للانقلاب عليه وقام بالاتصال بزعيم الحشيشية [4] راشد بن سنان (ت 588هـ / 1192م) ليدبر كميناً لاغتيال صلاح الدين [5] وكادت هذه المحاولة أن تنجح لولا وشاية ابن نجا الواعظ

فنفاه السلطان صلاح الدين على ذلك . لمزيد من التفاصيل : انظر (الصفدي : الوافي بالوفيات ،ج2 ، ص 134)

(1) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج13 ، ص 138. سُلْطَانُنَا أَعْرَجٌ وَكَاتِبُهُ ... ذُو عَمَشٍ ووزيره أحدب

(2) طبقات الشافعية الكبرى ، ج7 ، ص 342

(3) الملقب نجم الدين، الشاعر المشهور؛ نقلت من بعض تواليفه أنه من قحطان، ، وأن وطنه من تهامة باليمن مدينة يقال لها مرطان من وادي وساع وبعدها من مكة في مهب الجنوب أحد عشر يوماً، وبها مولده ومرباه، ورحل إلى زبيد سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة، فأقام بها يشتغل بالفقه في بعض مدارسها مدة أربع سنين، وأنه حج سنة تسع وأربعين وخمسمائة، وسيره قاسم بن هاشم ابن فليتة صاحب مكة شرفها الله تعالى رسولاً إلى الديار المصرية، فدخلها في شهر ربيع الأول سنة خمسين وخمسمائة، وصاحبها يومئذ الفائز بن الظافر، والوزير الصالح ابن رزيك ، ولما ملك السلطان صلاح الدين، رحمه الله تعالى، مدحه ومدح جماعة من أهل بيته، يتضمن ديوانه جميع ذلك، وكتب إلى صلاح الدين قصيدة متضمنة شرح حاله وضرورته، وسماها " شكاية المتظلم ونكاية المتألم " أصحاب القصر عند زوال ملكهم بقصيدة لامية طويلة أجاد فيها، وغالب شعره جيد ،ثم إنه شرع في أمور وأسباب من الاتفاق مع جماعة من رؤساء البلد على التعصب للمصريين وإعادة لدولتهم، فأحس بهم السلطان صلاح الدين، وكانوا ثمانية من الأعيان ومن جملتهم الفقيه عمارة المذكور، وشنقهم في يوم السبت ثاني شهر رمضان سنة تسع وستين وخمسمائة بالقاهرة، رحمهم الله تعالى، وكان قبضهم يوم الأحد السادس والعشرين من شعبان من السنة. (الصفدي : الوافي بالوفيات : ج3 ، ص 431.)

(4) وقد وصف الرحالة ماركبولو كيف كان زعيم الحشيشية يخدر أتباعه بالحشيش ويأخذهم إلى حديقة صغيرة ، حتى إذا ما أفاقوا اعتقدو أنهم في جنة الفردوس ، وحيئنئذ يطلب منهم مايشاء حيث يعتقدون في قدرته وينفذون أوامره دون جال Le Liver de markabole p97.100.

(5) Bernard louis .The arab in history p.149

(ت 599هـ /1203م) [1] الذي حاول الشيعة استقطابه إليهم فسايرهم ، ثم وشى بكل تفاصيل المؤامرة إلى صلاح الدين ، فقتل عمارة اليمني ووأد حركته [2] .

ولما مات سليمان حفيد الخليفة العاضد (ت 645هـ/1248م) (3)، طالب أتباعه وأشياعه من الرعية السلطان الكامل بالسماح لهم بالبكاء والعويل عليه حسب التقاليد الشيعية ، فسمح لهم ، وبعد انتهاء الجنازة كانت الفرصة سانحه له للقبض عليهم جميعا ومصادرة أموالهم وسجنهم ،وبذلك قضى على أي أمل لعودة الشيعة إلى حكم مصر ، ولم يجرؤ أحد بعد هذه الواقعة بالتظاهر لصالح المذهب الشيعي [4] .

وتظاهر مجموعة من النّصارى تحت قلعة الجبل بقيادة الأسعد بن صدفة كاتب دار التفاح في مصر ؛ اعتراضاً على تولية القس داود بطريرك للكنيسة بقرار من الملك العادل دون مراعاة الأعراف الكنسية في التعيين، ونزل إليهم الملك الكامل وتعرف على مطالبهم وتفهم وجهة نظرهم ، ونقلها إلى أبيه ، وأجاب مسألتهم [5]

---

[1] ابن نجا الواعظ كان كبير القدر ، معظما عند صلاح الدين ، وهو الذي نم على الفقيه عمارة اليمني وأصحابه بما كانوا عزموا عليه من قلب الدولة ، فشنقهم صلاح الدين وكان صلاح الدين يكاتبه ، ويحضره مجلسه ، وكان واعظا مفسرا ، سكن مصر ، وكان له جاه عظيم ، وحرمة زائدة ، وكان يجري بينه وبين الشهاب الطوسي العجائب ، لأنه كان حنبليا ، وكان الشهاب أشعريا واعظا . = =الخلفاء والملوك أموالا جزيلة . قال : ومع هذا مات فقيرا كفنه بعض أصحابه . (أبوشامة : الذيل على الروضتين ،ص 54 .)

[2] سبط ابن الجوزي : المصدر السابق ، ج21 ، ص 201؛ ابوشامة : الروضتين ، ج2 ، ص 282 ؛ ابن كثير : أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي (774هـ/1372م) البداية والنهاية ، (دار الفكر، (د.ن) ،1982م ، ج12 ،ص 275) ؛ وفاء محمد علي ، قيام الدولة الإيوبية في مصر والشام ، (دار الفكر العربي ، القاهرة ،1986 م) ، ص68 .

[3] سُلَيْمَان بْن دَاوُد بْن العاضد باللَّه عَبْد اللَّه بْن يوسف بن الحافظ. ، وكان قد أُدخِلَتْ أُمُّه إلى دَاوُد بْن العاضد فِي الحبْس، يعني أيّام صلاح الدّين، فِي زيّ مملوك، فحملت بسليمان. ثُمَّ حُملت الجارية إلى الصّعيد فولدت سُلَيْمَان وترعرع، وأُخفي أمرُهُ عَن الدّولة عند بعض الرُّعاة، فأُعلم بِهِ الملك الكامل، فظفر بِهِ وحبسه. ولمّا زالت الدّولة بموت العاضد قَالَتْ دُعاتهم: الإمامة صارت لابنه دَاوُد، ولَقَّبُوه بينهم: الحامد للَّه، ومات دَاوُد هذا فِي السّجن فِي سلطنة العادل. وأمّا سُلَيْمَان فلم يخلِّف ولدا ذَكَرًا . لمزيد من التفاصيل انظر(الذهبي : تاريخ الإسلام ، ج 47 ، ص 270 .)

[4] المقريزي : السلوك، ج1 ، ص 285 ؛ وفاء محمد علي : المرجع السابق ص 74

[5] المقريزي :السلوك : ج1 ، ص 352 .

إن حرية النقد والتعبير لم تكن مطلقة ، فقد يحبس أو يقتل أحد لأنه تحدث في مسألة دينية أو سياسية ، فلم يتسامح صلاح الدين الأيوبي مع الشهاب يحيى بن حبش السهروردي[1] الذي اتهم بالزندقة والاستهزاء بالدين وأخرج علماء حلب بيان بكفره وخروجه عن الملة وعملوا محضراً بكفره وكانوا لا يستطيعون مجاراته في فن الكلام، واعتبروه خطراً عليهم وعلى الرعية ، فأمر السلطان صلاح الدين ولده الظاهر غازي بإعدامه ، فاختار الشهاب أن يحبس في مكان دون أكل أو شرب حتى يموت بالجوع وقد حدث[2]، وربما كانت هذه العقوبة قاسية من صلاح الدين، إذ كان يستطيع عزله عن الناس في سجن شديد الحراسة بدلاً من الحكم عليه بالموت وإعطائه فرص أخرى للتوبة ، فلربما أقتنع وعاد إلى طريق الحق ، أو قام بنفيه إلى خارج بلاد المسلمين .

وكذلك لم يتسامح السلطان الكامل مع ابن أبي الخطاب (ت 633هـ/1236م)[3]، الذي كان يشغل وظيفة شيخ الحديث في عهده، وكان السلطان مقبلاً عليه، ثم أخذ منه دار الحديث وأهانه إذ كان يسيء إلى علماء المسلمين ويقع فيهم ويزيد في كلامه، فترك الناس الرواية عنه وابتعدوا عنه وكذبوه (ت عام 633هـ/1235م [4] .

---

(1) الحكيم شهاب الدين يحيى بن حبش بفتح الحاء المهملة والباء الموحدة وبالشين المعجمة - السهروردي المقتول بحلب.كان بارعاً في الحكمة وعلوم الفلسفة والأصول الفقهية وعلم الكلام = وشيخه وشيخ فخر الدين الرازي واحد،وهو مجد الدين الجيلي،وكان الحكيم المذكور مفرط الذكاء فصيح العبارة،مناظراً محجاجاً متزهداً،وكان علمه أكثر من عقله .(الذهبي : شذرات الذهب ، ج6 ،ص 476.)

(2) اليافعي: أبو محمد عفيف الدين عبد الله بن أسعد (768هـ /1367م) مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة مايعتبر من حوادث الزمان . (تحقيق خليل منصور ، دار الكتب العلمية ، بيروت 1997) ،ج3، ص 329.

(3) أبو الخطاب عمر بن حسن الكلبي الداني الأندلسي، المعروف بابن دحية، الحافظ العلامة اللغوي. سمع الحديث، وجال في مدن الأندلس، وحج، ودخل العراق، وسمع «مسند الإمام أحمد»، وبأصبهان «معجم الطبراني»، وبنيسابور «صحيح مسلم» بعلو بعد أن حدث به في المغرب بالإسناد الأندلسي النازل، ويقال: إنه حفظه كله ، كان من أعيان العلماء، ومشاهير الفضلاء، متقنا لعلم الحديث وما يتعلق به، عارفا بالنحو واللغة، وأيام العرب وأشعارها، جعله الكامل شيخ دار الحديث بالقاهرة، وقاضي القضاة بها، وضعفه جماعة.(الحضرمي : بو محمد الطيب بن عبد الله بن أحمد بن علي بامخرمة (947هـ/1540م) قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر، (تحقيق : بو جمعة مكري ، خالد زواري ، دار المنهاج – جدة ، 2008 م) ،ج5 ، ص 142)

(4) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج13 ،ص169

ومن الإنصاف أن نذكر أن السلطات الأيوبية قد شجعت حرية الرأي والتعبير، واستمعوا جيدا للعلماء وأصحاب الرأي وقربوهم وأعطوهم المناصب ليكونوا عوناً وسنداً لهم في مواجهة التحديات التي واجهت دولتهم ،وما دفع الأيوبيين إلى تقبل النصح وإجلال العلماء والإنصات إليهم هو حرصهم على تطبيق الشرع حتى لو أدى ذلك إلى معارضة السلطان والوقوف ضده في بعض الأحيان . مع الإشارة إلى وجود بعض الاعتداءات على هذا الحق من بعض الولاة في مواقف متباينة.

الخاتمة

1- عرف عن السلاطين الأيوبيين حرصهم على تطبيق شرع الله ومنح الرعية الحق في النصح والتعبير وحق النقد اللاذع أحياناً.
2- قرب السلاطين والأمراء العلماء وأهل الخبرة والشيوخ واستفادوا من آرائهم ، وتقبلوا نقدهم وكان لذلك أثر طيب على الدولة الأيوبية في حالة الحرب والسلم .، حيث كانوا دعامة قوية دائماً في تصحيح المسار باستمرار.
3- كفلت الدولة الأيوبية الحقوق السياسية للرعية، مما أسهم في التفاف السكان حولها، وزاد هذا الأمر من ثقتهم بها ، وظهر ذلك جلياً في الانتصارات الكبيرة التي حُققت تحت راية بني أيوب.

المصادر

-ابن أبي أصيبعة: أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجي موفق الدين (668هـ/1270م) :عيون الأنباء في طبقات الأطباء : (تحقيق نزار رضا " دار الحياة ، بيروت ، د.ت) .
-ابن العماد: عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي (1089هـ /1678م): شذرات الذهب في أخبار من ذهب (تحقيق زكي الأرناؤوط ، دمشق ، 1985م)
-ابن تغرى بردي : يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي (874هـ/1469م) : المنهل الصافي المستوفي بعد الوافي ،(تحقيق د . محمد محمد أمين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، د.ت) .
الخزرجي : صفي الدين الحسين بن جمال الدين الأنصاري ، سير الأولياء في القرن السابع الهجري ، (تحقيق محمود ياسين وآخرون ، دار القلم ، بيروت ، د.ت) .

ابن خلكان : بو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم (681ه/1282م) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، (تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، 1971م) .
ابن شاكر الكتبي : محمد بن شاكر بن أحمد (ت 764هـ /1363م)، فوات الوفيات ، (تحقيق ، إحسان عباس ،دار صادر ، بيروت ، 1973م) .
ابن شداد : عز الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن إبراهيم (684هـ /1285م) ، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، (تحقيق : يحيى زكرياة عباده ، وزارة الثقافة ، سورية ،1991م).
ابن قاضي شهبه، أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر (ت) طبقات الشافعية ،(تحقيق : الحافظ عبدالمعين خان ، عالم الكتب ، بيروت ، 1407هـ/1987م)
ابن قطلوبغا، أبوا الفدا زين الدين قاسم السودوني (879هـ/1474م) تاج التراجم ، (تحقيق : محمد خير رمضان ،دار القلم – دمشق ، 1992م).
ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي (774هـ/1372م) البداية والنهاية ، (دار الفكر، (د.ن) ،1982م .
ابن مماتي، الأسعد ابن مماتي (606هـ/1209م) قوانين الدواوين (تحقيق عزيز سوريال عطيه ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، د.ت)
ابن منظور، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (711هـ /1311م)، لسان العرب ، دار صادر بيروت ، 1990م .
ابوالفدا، عماد الدين إسماعيل بن علي (732هـ/ 1332م) المختصر في أخبار البشر(المطبعة الحسينية المصرية ، القاهرة ،د.ت)
أبوشامة ، تراجم رجال القرنين السادس والسابع الذيل على الروضتين ،(دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2002م)
الحنبلي، عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد العليمي (867هـ /1463م): الأنس الجليل بتاريخ القدس والجليل ، (تحقيق : عدنان يونس عبد المجيد نباتة ،مكتبة دنديس ، عمان ، 1999م)
الصفدي : صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله (764هـ /1363م) الوافي بالوفيات ، (تحقيق :أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى ، دار إحياء التراث - بيروت ، 2000م)

الذهبي : تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، (تحقيق: عمر عبد السلام تدمري دار الكتاب العربي، بيروت ، 1987م
السبكي : تاج الدين عبد الوهاب بن علي (759 هـ/ 1358م) معجم الشيوخ ،(تحقيق :بشار عواد وآخرون ، دار الغرب الإسلامي، 2004م).
العمري، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى (749هـ/1348م) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار،(المجمع الثقافي، أبوظبي ، 1423هـ /2002م) .
المقريزي، أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي (845هـ /1441م)، السلوك لمعرفة دول الملوك،(تحقيق : محمد عبدالقادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1997م) .
اليافعي، أبو محمد عفيف الدين عبد الله بن أسعد (768هـ /1367م) مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة مايعتبر من حوادث الزمان . (تحقيق خليل منصور ، دار الكتب العلمية ، بيروت 1997) .
اليونيني، قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد (726هـ/1326م) ذيل مرآة الزمان ، (دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة ،1992م)
سير أعلام النبلاء ، (دار الحديث ، القاهرة ، 2006م)
سبط ابن الجوزي : شمس الدين أبي المظفر يوسف بن قز أوغلي بن عبد الله (654هـ/1256م) مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، _تحقيق ابراهيم الزيبق ، دار الرسالة العلمية ، دمشق ، 2013م
شفاء القلوب في مناقب بني أيوب: تحقيق مديحة الشرقاوي ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، 1996م)،
طبقات الشافعية الكبرى ،(تحقيق محمود الطناحي وعبدالفتاح الحلو ، دار هجر ، ط2 ،1992م) .
مورد اللطافة في من ولى السلطنة والخلافة ، (تحقيق نبيل محمد عبدالعزيز ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، 1987م)

المراجع

الشربيني، البيومي إسماعيل. النظم المالية في مصر والشام زمن سلاطين المماليك (الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 1998م)
التُرباني، جهاد. مائة من عظماء أمة الإسلام غيروا مجرى التاريخ ، (دار التقوى للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة ،2010م) .
الأتروشي، شوكت. الحياة الفكرية في مصر خلال العصر الأيوبي ،(الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 2016م).

الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس (1396هـ/1976م) الأعلام ، (دار العلم للملايين ، بيروت ، 2002 م) .
الشيتاني، عبد الوهاب عبد العزيز. (حقوق الإنسان وحرياته الأساسية في النظام الإسلامي المعاصر، مطابع الجمعية الملكية، ط1، عمان، 1981م،)
جب، هاملتون آ.ر. صلاح الدين الأيوبي دراسات في التاريخ الاسلامي (تعريب :يوسف إيبش ، دار بيسان للنشر والتوزيع ، لبنان ، 1995م) .
حسين، حمدي عبدالمنعم. دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 2000م .
حمزة، عبد اللطيف. الفاشوش في حكم قراقوش / دار اليوم، القاهرة، (د.ت)
طقوش، محمد سهيل. تاريخ الإيوبيين في مصر والشام وأقليم الجزيرة ، (دار النفائس ، بيروت ، 2008م) .
كحالة، عمر رضا. معجم المؤلفين، (مكتبة المثنى ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، د.ت)

رسائل الدكتوراة

محمد سعيد محمد إلهامي (تطبيقات حقوق الإنسان في عهد الخلافة الراشدة، رسالة دكتوراة غير منشورة، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، عمان، 2006).

رسائل الماجستير

أحمد، عامر فتحي محمد الشيخ. فن الخطابة في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول دراسة تحليلية أدبية، (رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب جامعة الشرق الأوسط، فلسطين)2015م .